

# مفهوم الجريمة عند دورينمات

بقلم الدكتور يسري خميس

التاسع عشر حتى معام القرن العشرين ، على قضيبى/الفضجة والاثارة  
السيكولوجية المبردة ذات الخلفية الفكرية ، يعترض طريقه فجأة الكاتب  
السويسري المعاصر فريدريش دورينمات Friedrich Dürrenmatt

وفي يده راية انسانية بيضاء وفي اليد الاخرى مسدس محشو .  
ولقد تعرفنا في البلدان العربية - منذ مدة ليست بالقصيرة -  
على دورينمات خلال ترجمة العديد من مسرحياته - بصرف النظر عن  
مدى رداءة هذه التراجم - كذلك فوق خشبة المسرح وفي السينما ،  
وعرفنا فيه ذلك الكاتب العظيم الذي يمتلك القدرة الخارفة على تقديم  
عالمنا « عالم المهزلة والقنبلة الذرية » بمشاكله المعقدة بأسلوب انساني  
هزلي دامع ومرح . ولكننا لم نعرفه حق المعرفة ككاتب روائي ، ولم  
نعرف ايضا انه يهتم بأدب الجريمة اهتماما خاصا .

وفي هذه الدراسة ، أهدف الى التعرف على دورينمات كروائي  
من خلال عرض وتحليل رواية « القاضى والجلاد »  
التي كتبها عام ١٩٥٥ Der Richter und sein Henker

والتي طبعت حتى الان ثمانى عشرة مرة داخل المانيا ، متابعين اثناء  
ذلك نقطة التحول الجديدة التي حققتها دورينمات في أدب الجريمة  
الحديث ، فاتحا على مصراعيه عالما واسعا ذا امكانيات غير محدودة .

تبدأ الرواية البداية التقليدية بالنسبة للقضية البوليسية ،  
حيث يحاول الكاتب جذب انتباه القارئ بشكل مباشر منذ اول صفحة .  
ذات صباح مبكر ، يجد رجل البوليس « كليين » عربية زرقاء

متوقفة في طريق عام بقرينه الصغيرة « لامبويج » ، يجلس داخلها  
رجل مقتول بغيار ناري في رأسه . يتضح ان هذا الرجل المقتول هو  
ايضا رجل بوليس من العاصمة « برن » يدعى « شميد » . فما كان

منه الا ان جلس بجواره في العربية وقادها حتى العاصمة ، حيث نتعرف  
على شخصية الامور « بيرلاخ » الذي تجاوز الستين من عمره ، والذي  
تنقل في هذه المهنة ما بين تركيا و المانيا ، ثم نقل اخيرا الى العاصمة

السويسرية مسقط رأسه ، نتيجة صفقة لرجل مهم من رجال السياسة  
بألمانيا . وفي لمسة بسيطة ، كحادثة الصفح العرضية هذه ، التي ترتبط  
في ذهننا باللحظة نفسها التي نتعرف فيها على بيرلاخ لأول مرة ، ثم

من خلال تعليقه على حادثة القتل : « نحن نعرف القليل ، والصحف  
هي الشيء غير الضروري السخيف في الالفى عام الماضية » ، تتضح لنا  
بعض ملامح شخصية الامور الاساسية وسخطه على الواقع الاجتماعي ،

ورفضه للفهم المتجمد للواقع الانساني - فهو لا يحمل مسدسا الا  
نادرا ، ولا يستعمله الا في حالات الاضطرار ، كما ان باب منزله مفتوح  
دائما ، فقد كان بيرلاخ يمارس عمله وحياته بشكل انساني وبانفصال

متوتر امام الفوضى والانظام ، وليس بشكل وظيفي جامد مثل رئيسه  
( دكتور لوتز ) الاكاديمي القانوني ، المتأقلم أقلمة زائدة عن الحد مع  
الواقع الاجتماعي ، والذي يهيمه في المقام الاول والاخير « المحافظة على  
الشكل ، والشكل فقط » .

ويتحمس بيرلاخ لتابعة القضية ومعرفة القاتل ، ومنتقبا مع  
صاحبة المنزل الذي كان يسكن فيه « شميد » القليل ، فيعرض علينا  
دورينمات قطاعا عرضيا مخيفا للعادية البشرية ومدى ابتعادها وعزلتها  
عن الواقع ، قطاعا مشيرا للثناء والضحك المر ، نلمسه من الحوار التالي :

صاحبة المنزل : - أين هو السيد شميد ؟  
صاحبة المنزل : - أين هو السيد شميد ؟

أكدت احصائية قريية ان قصص اجانا كريستي البوليسية هي  
اكثر الكتب انتشارا بعد مؤلفات لينين .

ورغم الدلالة الاقتصادية لهذه الاحصائية ، التي تؤكد ان أدب  
الجريمة يسيطر من حيث الكم على السوق التجارية ويتشرب بشكل  
اخبطوط على مستوى الكرة الارضية ، نجد ان هذا التسوع من الادب ،  
« أدب الجريمة » ، ما زال - لحسن الحظ - يحتل مكانا ثانويا في عالم  
الفن والادب بشكل عام .

الا ان دلالتها الاجتماعية والنفسية ، تقودنا لموالم مخيفة . ففي  
الفترة الاخيرة من القرن العشرين ، وبعد معاناة الانسان المريرة نتيجة  
أهوال الحرب العالمية ، ومواجهته للموت والمعيب واللامنطق بشكل عار  
وصارخ ، ووقوفه الحالي امام شبح حرب جديدة ، ومراقبته للعلاقات

الاجتماعية نفسها التي ما زالت تتحرك داخل الاطار نفسه الذي أدى  
لحدوث الحرب ولسحق كل ما هو انساني ، بل ومراقبته في صمت  
لضفط الاطار المتواصل ولدى صلابته واحكامه - كل ذلك أحسدت

تطورات روحية من نوع غريب داخل المجتمع الرأسمالي الاوروبى  
الغربي . فيفقدان « المثل الأعلى » وبمواصلة ضفط الآلة المخيف على  
الكائن البشري ، واحساسه المستمر بالضعف والصفير والعجز ،

ويتحول الانسان التدريجي - داخل ذلك النظام - الى شيء وسط اقوام  
الاشياء المتراكمة ، ويتحويلة الى كائن غريب وسط عالم مفكك غامض  
واسطوري - يبحث الانسان عن « نموذج متكامل » ، عن « مثل أعلى » ،

عن انسان « ملحمي بطولي » - انسان يحقق له ما يفجز هو عن تحقيقه  
انسان يسيطر على الآلة وعلى التنكيك وعلى حياته بشكل بطولي ، يسيطر  
على حياته بشكل ما ، يمتلك حياته وحرته . في سبيل بحثه هذا ،

يجد اخيرا - بعد تعرفه على نماذج مختلفة - « جيمس بونسد »  
النموذج المنتصر دائما ، القوي دائما ، الشجاع دائما - ويشتمل جيمس  
بونسد في أغلب أجزاء الكرة الارضية مشعا اشعاعات مخيفة .

وبينما تعتمد القصة البوليسية غالبا على اثاره انفجالات فجأة  
مسطحة ، مليئة بالتشويق والرعب والفرع والمفاجئات - مثل روايات  
« اجانا كريستي » و « ايان فليمنج » - هدفها الاساسى التسليية

البحثة والانفعال القشري ، نراها تأخذ أحيانا اتجاها أعمق نحو داخل  
الانسان الغريب ، محاولة فهم النفس البشرية وكشف تضاريسها  
السيكولوجية المتناقضة ، كما في قصص ادغار الان بو التي تنطلق من

« موقف » ذاتي ، واضح او غير واضح تجاه العالم والانسان ، يمكن  
تسميته بموقف « عدم الرضا » او « الرفض » ومحاولة تخطي الصالم  
بمشكلاته التي لا حل لها الى عالم رومانتيكي داخل خيال الكاتب

نفسه ، الى عالم مضاد للواقع ، ومنفصل عنه ، خلقه الكاتب لنفسه  
طبقا لمواصفات خاصة حددها هو - هذا العالم الذي لم يخل من  
المشكلات بدوره ولم يحل الغاز الواقع ، بل ربما زادها تعقيدا وتقييدا ،

حيث يقول بو نفسه ان « هناك أوقاتا يرى فيها الانسان - حتى الانسان  
الحكيم - عالم البشر وكأنه الجحيم . ولكن خيال الانسان عاجز عن ان  
يستكشف خباياه دون ان يناله من وراء ذلك قصاص » .

بل أغلب الظن ان الانسان يواجه عجزه البشري بشكل مباشر  
داخل غابات الخيال المطاطية هذه .

وفي رحلة قطار ادب الجريمة السريع ، المنطلق من كوات القرن

لا يمكننا التعرف على الكاتب قط ، بل لا نرى وجهه على الإطلاق ،  
 فوجه الكاتب مختلف ، ماما ، خارج عن دائرة الضوء . كتلة مظلمة تتكلم  
 بسخف عن الوجبات الشهية . كتلة مظلمة تجلس في مكان بعيد وتلقي  
 بأحكامها على الأسماء بشكل ميكانيكي سائبي لا انساني ، دون ادنى  
 محاولة لفهم أبعاد الانسان . فالكاتب يرى في صاحب المنزل - الراسمالي  
 الكبير مدير تروست الصفيح - حالة مسلمية ، جديرة بالدراسة . فهو  
 يتعاطف مع الرأسمالي بكل ما يحوي عليه من شر ولا انسانية بشعة ،  
 بل يبرر له تصرفاته تبريرا عقيما بأنه « لا يفعل الشر لتحقيق غرض ما  
 - من أجل نقود او امرأة او سلطة كالأخرين - لكنه يفعل الشر لانه  
 لا معنى له - من أجل اللامعنى . فهناك دائما احتمالان بالنسبة له ،  
 الخير والشر . والصدفة وحدها هي التي تقرر السلوك الذي يجب  
 ان يسلكه . ان الشر هو اخلاقه ، فلسفته . ان الشر هو حريته  
 « حرية العدم » .

وهنا يرد عليه بيرلاخ بعد اعتراضه على هذا الفهم القاصر المزيف  
 لحقيقة الشر والخير في عالم البشر ، وذلك التبرير المغلوط للسلوك  
 البشري اللانساني ، والمحاولة المتعالية الجافة لتطبيق نظرية عدمية  
 بشكل رياضي على الانسان ، ورفع هذا العبث الفكري المتخبط مسن  
 مستنقع حقيقته المتبدلة الى مستوى النظرية ، وطرح القضية كمشكلة  
 ميتافيزيقية متناقضة رغم وضوح ابعادها وحدودها - يرد عليه بيرلاخ  
 ببساطة الانسان العادي صاحب الفكر الواضح النقي ، انه « من أجل  
 مثل هذه الحرية ، لا يدفع مليما واحدا » . ويتركه ويخرج دون نتيجة  
 وبلا أمل في معرفة شيء لتشخيص ظواهر الخطأ في حياة الانسان  
 وواقعه ، من أجل تحديد أبعاد المسؤولية الفردية تجاه الجماعة .  
 اما الفئة الثانية التي تشارك في هذا الحفل ، فهم كبار رجال  
 الصناعة ( الراسماليون ) اصحاب الاسماء المشهورة وهم « احسن  
 نموذج للمجتمع السويسري » وهم المنظّمون الرئيسيون لهذا الحفل ،  
 حيث تدار المناقشات والمباحثات التي تتعلق بالقضايا السياسية

بيرلاخ : - سافر للخارج فجأة .

- بالتأكيد الى منطقة استوائية . ليس كذلك ؟

- لا ، ليس بالضبط . ليس في منطقة استوائية . سافر الى  
 مكان اعلى من ذلك .

- يا الهي ! الى الهاميا ؟

- تقريبا . لقد قربت من معرفة المكان .

- هل سيرسل لي بطاقة من الخارج؟ ان ابني يجمع طوابع البريد .  
 هذا الحوار بما يحتويه من مفارقة مريرة وسخرية واضحة هو من  
 أجل كشف العادية وجرحها .

ثم توكل المهمة رسميا لشباب طموح مقامر يدعى « تشانس » يبحث  
 عن الفرصة كي يؤكد ذاته في عالم البوليس . ويقابل بيرلاخ الذي  
 يمدده بمساعدة في تتبع الحقيقة والكشف عن القاتل .

كان « شميد » المتوكل - وهو اسم منتشر لدرجة كبيرة في  
 سويسرا - بمثابة رمز ( لانسان العصر ) المتحضر - ذلك الانسان الذي  
 يحمل على كتفيه موروثا حضاريا لقرون طويلة . كان مثقفا ، يعرف  
 اليونانية واللاتينية ، كان ذكيا ، محبوبا ، حذرا ، كان له مستقبل  
 عظيم ، لكنه فجأة قتل . كان الأمل الوحيد في كشف الخطأ البشري  
 وتعريفه من أجل تصحيح واقع الانسان ، كان الخلاص الذي يرمز  
 لمستقبل الانسان . لكنه قتل . كان كالحیوان الاصيل وسط غابة من  
 الوحوش الضارية .

وبنتبع اطراف القضية بعد تفاصيل قليلة ، يتضح ان شميد قتل  
 أثناء رجوعه من حفل في قرية لامبونج ، حيث كان يذهب اسبوعيا .  
 وبينما كان بيرلاخ مع زميله تشانس يراقبان ذلك المنزل الذي  
 تبعث منه موسيقى باخ - حيث كان الحفل - فاجأ الأمر كلب ضخم  
 شرس وهجم عليه بالفعل ، لكنه لم يحاول ايذاءه ، في نفس اللحظة  
 التي اطلق فيها زميله الرصاص على الكلب فقتله .

وهنا تتوقف الموسيقى على طلقات الرصاص ويخرج صاحب المنزل  
 مستثارا مستغزا، صارخا فيهما، متهما اياهما بالانفصالية ! والشيوعية !!  
 وبأنه لا يسمح مطلقا باطلاق النار أثناء عزف الموسيقى ، وانه يحرم  
 اية مظاهرة ضد المدينة الغربية - والا فالجيش سوف يضمن النظام !  
 ويتفق دورينمات مع زميله ماكس فريش في وجهة النظر هذه - حيث  
 لا يسمح صاحب المنزل بقتل كلب أثناء عزف موسيقى باخ ، بينما قام  
 اشخاص من مثل صاحب هذا المنزل بقتل الاف والاف من الاطفال والشيوخ  
 أثناء الحرب ، ثم يذهبون لسماع موسيقى باخ وموتسارت في فترات  
 راحتهم من اعمال القتل الجماعية دون ادنى احساس بالذنب او الخجل .  
 ان دورينمات يعري هذه الشيزوفرينيا الاخلاقية او الشيزوفرينيا  
 السلوكية لانسان العصر ، من القدرة على العزل التام بين الثقافة  
 والحضارة من ناحية وبين السلوك البشري من ناحية اخرى .  
 ان لم تجد الحضارة في تغيير سلوك الانسان ، اذن فلنعلن افلاس  
 الحضارة ، او فلنعلن بصراحة افلاس الانسان .

وندخل المنزل ، فتتعرف على النماذج البشرية التي يضمها  
 الحفل : الفنانون وهؤلاء « مجرد ديكور ضروري لتكملة شكل الحفل  
 الاجتماعي . فنحن في بلد ذي حضارة . ويجب ان تكون المناقشات في  
 سرية تامة . وهذا مؤكد في حالة وجود الفنانين . فالحفل مليء باللحوم  
 المشوية والنيبذ والتبغ والنساء ، والدردشة التي يملها الفنانون ،  
 فينزلون تدريجيا ويجلسون سويا ، حيث يتناقشون في مسائل الفن  
 ومشاكله - دون ان يلاحظوا ما تدبره فئة الراسماليين » .

يهاجم دورينمات بقسوة وصراحة انزال الفنان عن واقع مجتمعه  
 ومشاكله ، فهو « لا يكتب الا الدراما السطحية المثيرة ولا يرسم سوى  
 الجبال » ولا يهمه الا الفن فقط ، مبتعدا مسافات طويلة عن مشاكل  
 العالم المعقد الذي نعيش فيه . بل ان دورينمات يحمل الفنانين  
 مسؤولية هذه الفوضى المنظمة التي تقف امامها باحترام كما تقف  
 امام تمثال العذراء .

ف عندما يقابل الأمور بيرلاخ كاتباً كان يتردد على هذا المنزل ،

## آخر منشورات

### دار الآداب - بيروت

ق.ل

● دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي

● للدكتور عبد الرحمن بدوي ٣٥٠

● تجديد رسالة الفران لخليل الهنداوي ٢٥٠

● جومبي ( رواية ) لاديب نحوي ١٢٥

● الخيل والنساء ( قصص )

● للدكتور عبد السلام العجيلي ٢٠٠

● رحماك يا دمشق ( قصص )

● للدكتور سهيل ادريس ٢٠٠

والاقتصادية والتي « لا ينبغي للدولة ان تتدخل فيها » . وهنا تتكشف لنا نوعية العلاقات الرأسمالية وحقيقة طبيعتها البشرية ومدى سيطرة الرأسماليين على علاقات العالم المتداخلة بشكل او باخر .

هذه المشكلة التي تؤرق دورينمات في أغلب أعماله الفنية والتي يثيرها دائما بشكل واضح - ففي ( زيارة السيدة المعجوز ) نسرى البيونيرة « كلارا تساخاناسيان » التي اشترت بأموالها الفرية كلها بمناجها ومصانها وأناسها بضمائرهم ونفوسهم ومثلهم ، بل لقد اشترت زوجة صديقها ( ال ) الذي كان يجب ان يسجن ويموت من أجل الجميع . كذلك شخصية محتكر صنامة البطلونات ( روبف ) في مسرحية ( رومولوس العظيم ) الذي يؤكد ان مؤسسته في جـسانب والامبراطورية في جانب اخر . وان وراءه الملايين من العملات الذهبية ، بينما وراء الامبراطور ، الطوفان الكبير . وانه على استعداد لان يشتري الامبراطورية ( العالم ) كلها من أجل ان ينفذها .

وهكذا ، فرجال الصناعة الاحتكاريون هم سادة الموقف في المجتمع الرأسمالي ولا شك - وبينما توضع النظم ، وتضيق الدائرة شيئا فشيئا ، وتحكم الاطر حولنا - يتناقش الفنانون في الفن ! وعندما يقابل بيرلاخ ( نموذج الانسان الانسان ) صاحب المنزل الرأسمالي ( نموذج الانسان الجريمة ) وجهها لوجه ، يدور الحوار التالي :

بيرلاخ ( الانسان ) : لن أتوقف قط عن مطاردتك . يوما ما سوف أتمكن من اثبات جرائمك .

الرأسمالي ( الجريمة ) : يجب ان تستريح . لم يعد عندك الوقت الكافي . امامك سنة واحدة فقط .

- فرصتي الاخيرة .

- الاخيرة .

ذلك هو الحوار الذي نرى خلاله حدة الصراع القائم بين الانسان والشر ، وصلابة الانسان وتصميمه على مطاردة الشر والخطأ البشري ، رغم مواجهته المستمرة لشبح الموت .

كما نعرف على قدم هذا الصراع وأزليته والتحدي المتواصل من جهة الشر . فبيرلاخ يعرف الرأسمالي ( نموذج الجريمة ) منذ فتسرة عمله في تركيا ، ويذكر يوم ان القى الرأسمالي برجل من على الجسر في النهر - متخددا بذلك بيرلاخ ( الانسان ) - حيث برأته المحكمة ، وصدقت ادعاه بانها كانت مجرد محاولة للانتحار .

فالشر يسبق الانسان دائما بخطوة ، ولن يلحق الانسان به قط . فنحن نجيء الى العالم وكلنا براة ونفساء ، فنجدده ممثلنا بالشرور والايحاء . كما ان النقص البشري وعدم الاكتمال الانساني ومحدوديته - بالاضافة الى دور الصدفة الهام على مستوى الفرد ، تحدد السلوك الفردي لحد كبير . هذا لا يعني مطلقا اسقاط المسؤولية الفردية

## منشورات « دار الاداب »

تطلب في القاهرة

من

مكتبة منبجولي

٦ ميدان طلعت حرب

( سليمان باشا سابقا )

واعفاه من تحمل نتائج سلوكه . فالجريمة موجودة كشيء شخص على مستوى الفرد - رغم تأكيدنا من غباء هذا العمل وعبيثته . فمن المحال ان نتعامل مع الانسان كما نتعامل مع قطع الشطرنج . اما اذ ابحتنا في الاصول العميقة والدوافع الرئيسية لارتكاب الخطأ بعد تخلصنا من النظرة المثالية والفهم المطلق العام للكلمة ( الشر ) ونزلنا من المستوى الميتافيزيقي الى المستوى الاجتماعي الانساني للمشكلة ، محاولين تحديد الابعاد والدوافع المادية التي تدفع الى مثل هذا السلوك الاجتماعي المموج ، فاننا نرى ان أصل أشر يكمن في خلل العلاقات الاجتماعية ، حيث ينشأ ويستقر على اريكة هذه الربة التي تسيطر على العلاقات الانسانية في ظل النظام الرأسمالي - الشيء الذي يبيح لمجموعة قليلة من الافراد ان تمارس أنانيتها ودوافعها الشخصية النفعية لاقصى حد ممكن ، منجاة كل مبادئ العلاقات الانسانية الاولية .

وهكذا ، فان التخلخل الاجتماعي الذي يكون الصفة السائدة في النظام الرأسمالي يبيح الحقيقة ويبيح بالتالي ارتكاب جرائم عديدا يدرك أثرها ونميتها ونفاسيه .

وهنا يرتفي دورينمات بالرواية البوليسية من مستوى الاشارة العادية ، مستعملا امكانياتها الفنية ، منخطيا المستوى السيكلوجي ، نابعا ابواب مستوى أجماعي عريض ، كاشفا من خلاله أوضاعا اجتماعية معقدة بما فيها من خطأ وجرائم ، محاولا تحديد طبيعة العلاقة الفرية بين الانسان والخطأ وبين الانسان والشر ، شاهرا في وجه هذه العلاقة مسدسه المحشو .

وهكذا ، فقد اكتسبت الجريمة من خلال هذا الفهم الانساني الرحب مفهوما أوسع وأعمق - فالجريمة هنا هي جريمة ( الوضع الاجتماعي ) وانحط يلتمس في نوعية العلاقات الاساسية المرتبطة . وفي هذا الصدد نخلف كلية وبجده مع تولن ويلسون في حكمه المسرع الجائر على الرواية في كتابه ( المصقول والدمعقول في الادب الحديث ) بأنها « رواية بوليسية خفيفة انظر ، ولكنها لا تحتسوي على أي تأثير عميق » !

مبنيها على العبر :

يجلس الامور مع رئيسه في عربة سوداء . كل منهما يرتدي معطفا اسود ، مرفوع الياقة ، ويجلس في ركن العربة بلا حراك . وبلا كلام . المطر يتساقط بغزارة . يضرب زجاج السيارة . موتور العربة يكسر الصمت في الطريق الى دفن رجل البوليسي .

يستغل دورينمات في ذلك المشهد ، كل امكانيات الصورة اللفظية والحسية للغة ، مستعملا لفة اقرب الى اللفة السينمائية في التعبير شبه الكامل بالصورة . بل انه يستعمل اللون كعنصر درامي يشارك في تفسير الحدث وفي كشف الموقف النفسي للشخصيات ، كذلك في خلق الجو العام للموقف الدرامي - الشيء الذي يذكرنا بأنطونيوني وفهمه المتطور لوظيفة اللون كعنصر جديد وهام في مجال الدراما المعاصرة . « جميع رجال البوليس حول التابوت . في ملابس مدنية . الجميع يرتدون المعاطف الواقية من المطر . والاحذية الطويلة والقبعات السوداء . المظلات في أيديهم كالسيوف ، كأنهم حراس موت خياليون ، خرجوا فجأة من مكان ما - طيبون لاقصى حد . وخلفهم موسيقى البلدة ، حيث يرتدي المازفون جميعا حلا مخططة بالاسود والاحمر ، ويقبضون على الات نحاسية صفراء تحت معاطفهم » . الكل نسخة واحدة . نسخة كربونية مكررة . الكل اسود ، بارد ومبتل . الشيء الدافئ الوحيد وسط هذا المطر اللانهائي ، هو التابوت ، الموت . وفي هذه اللحظة المساوية ، يأتي شابان عملاقان ، سكرانان ، ثم يضعان طوقا من الزهور أرسله الرأسمالي ، على تابوت الانسان الميت ، ويفتيان في ابتدال ان : « كل شيء يمر - كل شيء ينتهي » . حيث يواجهنا دورينمات بعيشة الحياة وعمقها ونهايتها اللامنتظية ، وحيث يخلط في هذا الموقف المأساوي بين المطر والطين والسواد والموت والقهقهات الثملة . ويهزول الجميع داخل سياراتهم السوداء الضخمة . ويقسى

خفّار القبور وحده مع الجثة .

ومما يلفت النظر ، ان دورينمات قد قدم لنا شخصياته المتعددة وسلوكها المختلف وفهمها الخاص للعالم وعلاقاته المشابكة داخل اطار الشكل التقليدي للرواية البوليسية ، ولم يجد هناك ضرورة لطرق باب اسلوب الرواية الجديدة - الشيء الذي يؤكد ان التجديد لا يعني ان يكون شكليا بالضرورة ، فالملاقة الجدلية بين جزئيات العمل الفني تنشأ أساسا من مدى فهم الفنان ووعيه لواقع العصر وواقع الانسان ، ومدى استيعابه وتمثله لهذا الواقع ، ومدى تملكه لادواته الفنية وسيطرته عليها - هذه الملاقة تنشأ بشكل تلقائي عفوي من خلال موقف الفنان نفسه ورؤيته ، المعاصرة أو غير المعاصرة ، التقدمية او المتخلفة ، فالرؤية - بمفهومها الواسع - هي التي تحدد كل شيء ، والفنان اولا واخيرا هو وحده الذي يملك الحسم . وليست هناك قواعد ثابتة .

فقد حافظ دورينمات على الشكل التقليدي للرواية البوليسية ، فجذب اهتمامنا في السطور الاولى بحادثة القتل ، وتتبع الجريمة بالتدرج ، متعرضا لتفاصيل اجتماعية هي جوهر المشكلة في الاصل ، مرتفعا بها لمستوى ميتافيزيقي غني . ثم يفاجئنا في اخر الرواية بان الذي قتل « شמיד » ليس بالراسمالي ، لكنه رجل البوليس « تشانس » المكلف رسميا بالبحث عن القاتل . ذلك الشاب الطموح ، الذي كان يكره شמיד لتفوقه عليه ، والذي اباح لنفسه كل شيء ، حيث قتل زميله بدافع شخصي بحت ، واستولى على عربته ووظيفته وفنائه .

ونعرف ان بيرلاخ كان على علم بان تشانس هو القاتل منذ الربع الاول من الرواية ، حيث اكتشف ان الرصاصة التي قتل بها الكلب من نفس المسدس الذي قتل به رجل البوليس .

وينجح المأمور في أن يؤزم تشانس نفسيا ، المرة بعد المرة ، الشيء الذي اضطر تشانس لمحاولة التخلص منه - ثم دفعه الى قتل الراسمالي والتخلص منه نهائيا . وهنا يواجه بيرلاخ زميله تشانس بمعرفته لتفاصيل الجريمة منذ البدء ، ويعرّبه تماما وبلا رحمة، ويخبره

انه استعمل الشر الخاص كسلاح لقتل الشر العام ، والوحشية ضد الوحشية . ويأمره بالذهاب بعيدا ، بعيدا جدا ، حيث نجده فسي اليوم التالي منتحرا .

ولكن ما هي الضرورة الفنية أو الفكرية لمثل هذه المفاجأة التي تتناقض مع كل تفاصيل الرواية السابقة ؟

هل يريد دورينمات ان يؤكد عيشية العلاقات الاجتماعية القائمة في اوربا الغربية ومدى لا منطقيتها ؟ هل يريد ان يؤكد مدى تماسك ذلك الاطار الاجتماعي اللانساني - المتمثل في شخص الراسمالي - ومدى صلابته وقدرته على الاستمرار في تولى السلطة والتحكم فيها ؟ وان الخطر الحقيقي ما زال موجودا بيننا ؟

أغلب الظن ان دورينمات - كأغلب مفكرى الغرب المعاصرين - يرى استحكام النظام الراسمالي القائم واستغلافه ، يرى عيشيته ولامنطقه وعفته ، بل انه يفضحه ويرفضه رفضا مطلقا . لكن ، ما هو البديل الذي يقدمه لنا دورينمات بعد رفض ذلك الواقع وتقويض اساس ذلك النظام ؟ ان أمكن ذلك ؟

لا بديل ، فالطريق مفلق ومسدود ، ونهايته مفتوحة على هوة واسعة عميقة وغريبة .

البديل النظري الوحيد لتغيير اساس هذه العلاقات الى شكّل أكثر انسانية هو : الحل الاشتراكي . الشيء الذي يكون بمثابة رؤيا خيالية غير ممكنة التحقيق - في الوقت الحاضر على الأقل - ، والشيء الذي يعني رفض حضارة عريضة وتاريخ طويل يعتز به مثقفو الغرب ويرتبطون به بشكل عاطفي .

وهكذا يتخبط المثقف هناك في دوامة الواقع المبت - المرفوض ، ورغم وعيه لطبيعة هذه الدوامة ، فإنه لا يملك القدرة على تغييرها .

يسري خهيس

القاهرة

# العربية الفصحى

نحو بناء لغوي جديد

تأليف الأب هنري فليش اليسوي  
تعريب وتحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين

منشورات : المطبعة الكاثوليكية - بيروت

توزيع : المكتبة الشرقية - ساحة النجمة - بيروت